Scientific Illuminations Magazine *ISSN : 2716-8395*
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/827

مجلة إضاءات علمية
مجلة علمية أكاديمية تصدرعن جامعة الجزائر2

The issue of heritage and modernity in the thought of Ibn al-Annabi Algerian

فرج سعيد
Feredj said
جامعة يحي فارس - المدية
Feredj.said@univ-medea.dz

الارسال: 2022/03/31. القبول :2022/06/20 النشر:2022/08/30 المرسل: فرج سعيد

الملخص:
يعتبرابن العنابي (1775 – 1850م) من أهم الشخصيات التي عرفتها الجزائرخلال الفترة الحديثة حيث كان عالم عصره، تثقف بثقافة عصره كما اطلع على ما يجري من تغيرات في ميدان العلوم والمعارف التي عرفتها أوروبا في تلك الفترة، هذا ما جعله يتخذ موقف واضح ومتزن من التراث والحداثة بين الدعوة إلى التمسك بالتراث بشرط تنقيته من الشوائب والمفاهيم الخاطئة التي أُلصقت به، وبين الدعوة للأخذ والاقتباس من منجزات الحضارة الأوروبية في الشؤون العسكرية والصناعية والتقنية، وهذا ما جعله من العلماء المصلحين الأوائل في العالم الإسلامي الذين تطرقوا لهذه القضية في الفترة الحديثة .
الكلمات الدالة: ابن العنابي ، التراث، الحداثة .

Abstract :
During the modern period, Ibn al-Annabi(1775-1850) was considered as a scholar of his era, and one of the most important figures that Algeria knew. Ibn al-Annabi was educated ،and was aware of all the changes taking place in the field of science and knowledge that Europe witnessed during that period. All this education and knowledge made him the holder of a firm position on heritage and modernity among people, as he called for adhering to heritage on the condition that it stay away from everything that might distort it. He also called for the necessity of taking and quoting from the achievements of European civilization in military, industrial and technical affairs, and this is what made him one of the reformed scholars. The first in the Islamic world who addressed this issue in the modern period .

Key Words : Ibn al-Anabi, héritage, modernity.

مقدمة

يعتبر ابن العنابي (1775 – 1850 م) من أهم الشخصيات التي عرفتها الجزائر في الفترة الحديثة، حيث أنه كان عالم عصره تلقى العلوم والمعارف التي كان يتلقاها أقرانه، وتثقف بثقافة عصره التي غلب عليها الاهتمام بالعلوم الدينية، إلا أن ابن العنابي لم يكتفي بهذا النوع من العلوم وإنما وسع معارفه وعلومه بحيث اطلع على ما يجري من تغيرات في ميدان العلوم الحديثة التي عرفتها أوروبا في تلك الفترة، هذا ما جعله يتخذ موقف واضح من التراث الجزائري خاصة والعربي الإسلامي عامة، حيث دعا إلى ضرورة الحفاظ على تراث الأمة وهويتها بشرط تنقيته الدين الإسلامي من الخرافات والمفاهيم الخاطئة التي أُلصقت به، وفتح باب الاجتهاد، في مقابل ذلك كان له كذلك موقف عقلاني ومتزن من الحداثة، حيث دعا إلى وجوب الأخذ والاستفادة من منجزات الحضارة الأوروبية من أجل تحصيل القوة والتمكين واللحاق بالركب الحضاري، بشرط أخذا ما يخدم الأمة الجزائرية والإسلامية وما يحترم خصوصيتها، وترك كل ما يَسْلُبْ الأمة هويتها وذاتها .

انطلاقاً مما سبق ذكره جاءت دراستنا هذه لمعالجة الإشكالية التالية: ما موقف ابن العنابي من قضية التراث والحداثة التي عرفتها الجزائر و العالم الإسلامي خلال الفترة التي عاشها ؟ ومحاولةً منا الإجابة عن هذه الإشكالية قسمنا بحثنا إلى ثلاث عناصر، العنصر الأول تطرقنا فيه إلى سيرة ابن العنابي، العنصر الثاني تطرقنا فيه لموقفه من التراث، والعنصر الثالث تضمن موقفه من الحداثة، ، وهدفنا من خلال دراستنا هذه إلى الكشف عن موقف ابن العنابي من قضية التراث والحداثة من جهة ومن جهة أخرى الاستفادة من أفكاره التي تتناسب مع حاضرنا، معتمدين في دراستنا هذه على المنهج التاريخي الوصفي من أجل وصف الأوضاع التي عاصرها ابن العنابي والتي ساهمت في تخاذه مواقف معينة اتجاه القضايا التي عاصرها والمتمثلة في قضية التراث والحداثة، كما اعتمدنا إضافة إ إلى هذا المنهج على المنهج التحليلي من أجل تحليل مختلف المواقف والأفكار التي طرحها ابن العنابي حول قضية التراث والحداثة .

1. سيرة ابن العنابي

1.1 مولده أسرته وثقافته:

هو محمد بن محمود بن محمد بن حسن الجزائري ولد سنة 1189هـ الموافق ل 1775م سمي ابن العنابي نسبة إلى مدينة عنابة [1] وسنة مولده أكدها هو بنفسه في إجازته للشيخ محمد بيرم التونسي سنة 1245هـ، أسرته قديمة في تاريخ الجزائر لكنها ظهرت بعد مجيء العثمانيين، جده الأعلى هو حسين بن محمد بن العنابي موجود في قائمة المفتين الأحناف في الجزائر سنة 1148هـ الموافق ل 1735م، وكما هو معروف فإن المفتي الحنفي في الجزائر العثمانية هو شيخ الإسلام الذي لا يفوته في المنزلة إلا الداي أو رئيس الدولة، وكان جده هذا عالماً واسع المعرفة بعلوم الشريعة، وله تفاسير في القرآن الكريم كما برز علماء آخرين في أسرته، من بينهم أحد أجداده وهو مصطفي بن رمضان العنابي الذي جاء من مدينة عنابة إلى الجزائر وعاش بها ومنها أُطلق على العائلة لقب العنابي [2].

كان ابن العنابي ينتمي إلى أسرة جزائرية عريقة في العلم والوظائف الرسمية والفقه الحنفي[3]، هذه الحضانة الأسرية والعلمية ستلعب دور كبير في مستقبل ابن العنابي وتوجهه العلمي، إذْ أنه تلقى العلوم

الدينية من علماء أسرته، ووفرت له الكتب الأجواء العلمية فرصة النبوغ والترقي في طلب العلم، وحتى المكانة الاجتماعية كانت محترمة فكما سبق وذكرنا أن أجداده كانوا قضاة أحناف في الجزائر العثمانية وهذا طبعا ما سيسهل له الوصول إلى الوظائف الحكومية التي كانت بعيدة المنال لأقرانه من العلماء .

أما عن ثقافته فقد تثقف ثقافة واسعة بمفهوم عصره، وبتالي فإن ثقافته كانت ثقافة تقليدية، وذلك من خلال غالبية مؤلفاته من غيركتاب السعي المحمود في نظام الجنود، فهو حسب سعد الله حافظ وناقل أكثر منه مفكراً ومجتهداً، تلقى العلم في وطنه عن جده ووالده كما تلقاه عن المفتي المالكي علي ابن عبد القادر بن الأمين، من العلماء الذين عاصروه مصطفى الكبابطي، الكاتب السياسي حمدان خوجة، والعالم محمد ابن مالك[4].

إن الحكم على ثقافة ابن العنابي بأنها كانت تقليدية يصح في موضع ولا يصح في موضع آخر، فإذا قارنا ثقافة ابن العنابي مع ما كانت تعيشه أوروبا من تطورات في مختلف مجالات الحياة في تلك الفترة، والتي أبانتها الحملة الفرنسية للعالم العربي والإسلامي، في هذا الموضع يمكن أن نطلق صفة التقليدية على ثقافة ابن العنابي كونها كانت ترتكز بالأساس على العلوم الدينية، وعدم الاهتمام بالعلوم العصرية على النمط الغربي، أما إذا قارناها بثقافة العالم العربي والإسلامي في تلك الفترة فإن هذا الحكم لا يصح، بل يمكن اعتبار ابن العنابي من المصلحين والمجددين الأوائل في العالم العربي والإسلامي، حيث كان صارم في المسائل الدينية يعالجها بمفاهيم جديدة تختلف عن ثقافة التقليد الأعمى للأقدمين الذي كان يسلكه بعض العلماء .

يذكر أبو القاسم سعد الله بأن ابن العنابي كان متمسكا بالعلوم الشرعية، يتمتع بحافظة قوية لذلك يغلب على إنتاجه النقل من كتب وآراء الأقدمين، ويتمتع بقدرة فائقة على التأويل والتخريج والتعليل، أما عن طريقة معالجته للقضايا والمسائل فقد كانت أجوبته في غاية الدقة والتحليل، وهو لا يترك مسألة حتى يقتلها بحثاً وتعليلاً واستنتاجاً، وكل ذلك بأسلوب سهل واضح يكاد يكون خاص به، فقد مدحه من عاصروه بأنه متعمق في العلم وقوة التحرير والنظر، وبأنه عالم المنقول والمعقول[5].

2.1 وظائفه:

توفرت العديد من المؤهلات والعوامل التي سهلت لابن العنابي الوصول لعديد الوظائف في الجزائر العثمانية من بينها ثقافته الواسعة التي تتماشى ومتطلبات عصره، فكما هو معروف أن العلوم المنتشرة والسائدة في تلك الفترة هي العلوم الدينية وبالتالي هذا ما يسهل على علماء الدين الحصول على وظائف للتدريس، كما أن حل القضايا والمسائل الخلافية في تلك الفترة كان يعتمد على فتاوى القضاة والعلماء لأنه لم تكن القوانين الوضعية التي أنتجتها الحضارة الغربية معروفة ومتداولة في الجزائر، وهذا ما سهل وصول ابن العنابي لمنصب القضاء والإفتاء زد على ذلك مكانة أسرته المرموقة التي تقلدت أعلى المناصب في الجزائر العثمانية، كل هذه المعطيات ساعدت في وصول ابن العنابي لعديد الوظائف.

كانت أول وظيفة له هي منصب القضاء الحنفي سنة 1208هـ وعمره دون سبع عشرة سنة مما جعله يستقيل، لكنه عاد إلى المنصب في 1210هـ، حيث مكث فيه نحو ثلاث سنوات كما تولى منصب الإفتاء الحنفي من 1213 إلى 1236هـ[6]، كما تقلد وظيفة نقابة أشراف مكة والمدينة واضعاً أمام ذلك ختمه الذي يحمل تاريخه، كما كُلف بمهام السفارة إلى المغرب الأقصى من طرف الداي عمر باشا إلى سلطان المغرب الأقصى

المولى سليمان، وكُلف من طرف الداي أحمد باشا بالكتابة لباي تونس، وهكذا يتضح أن ابن العنابي لم يكن مجرد عالم بالفقه و العلوم الشرعية فقط ، وإنما كان دبلوماسياً ناجحاً وخبيربشؤون الدول [7]، ولولا حنكته لما اختاره الداي وفضله عن بقية حاشيته ومقربيه لهذه المهمة .

سافر إلى المشرق لأداء فريضة الحج سنة 1236هـ، لكنه اختار قبل العودة إلى الجزائر الإقامة في مصر ربما لسوء تفاهم بينه وبين نظام الحكم في الجزائر، فمكث يدرس بالأزهر سبع سنوات من نزوله مصر إلى غاية 1245هـ /1829م[8]، حيث كان يشغل منصب مفتي الحنفية في عهد محمد علي باشا، كما كان يقوم بإلقاء الدروس في الجامع الأزهر ويأتيه العلماء للدرس، ويقوم بإجازة المستجيزين وإجابة الداعين، كما أجاز عدد من تلاميذ والعلماء في تونس أثناء طريق عودته من مصر إلى الجزائر من بينهم الشيخ محمد بيرم[9]، وفي سنة 1829م عاد إلى الجزائر بطلب من حسين باشا أين استقبله بحفاوة ورحب بقدومه وولاه الإفتاء الحنفي، وأثناء الاحتلال عينه حسين باشا إلى جانب الآغا إبراهيم في قيادة الجيش الجزائري، وكان الهدف من ذلك هو الاعتماد عليه في الدعوة للجهاد ضد العدو ورفع معنويات الجيش الجزائري والجزائريين، وبعد الاحتلال ووقوع الجزائر في يد المستدمر الفرنسي اعترض ابن العنابي بشدة على الخروقات والتجاوزات الحاصلة، ونقض الفرنسيين لبنود معاهدة الاستسلام وهذا ما أدى إلى نفيه وإبعاده من الجزائر[10] .

بعد صدور قرار نفي ابن العنابي من الجزائر توجه نحو مصر أين استقر بها، وعينه محمد علي باشا في وظيفة الإفتاء الحنفي، ظل فيها إلى غاية سنة 1266هـ حينما عزله عباس باشا حفيد محمد علي باشا، ويرجع السبب في ذلك إلى الوشاية التي تعرض لها ابن العنابي من بعض العلماء الذين حقدوا عليه بعد تأليفه لكتاب صيانة الرياسة ببيان القضاء والسياسة، هذا الكتاب الذي جمع فيه ابن العنابي الأقوال الراجحة من المذاهب الأربعة في الإفتاء بطلب من محمد علي باشا، ولما وصل عباس باشا إلى سدة الحكم أقنعه هؤلاء بضرورة عزل ابن العنابي ووصفوه بهتانا وزوراً بالمروق والزندقة وأنه خرج عنه المألوف في الفتاوى، وبعد عزله ظل ابن العنابي مبتعداً عن التدخل في الأمور المذكورة إلا أن توفي سنة 1267هـ/1850م [11].

3.1 مؤلفاته أو آثاره:

كما سبق وذكرنا فإن ابن العنابي تثقف بثقافة عصره وتعلم العلوم التي كانت قائمة في عصره وهذا ما أثر في أسلوب تأليفه للكتب سواء في منهج الكتابة أو طبيعة القضايا والمسائل والموضوعات التي تطرق إليها حيث يذكر أبو القاسم سعد الله أن الظاهرة العامة في تآليف ابن العنابي تتصف بكونها صغيرة الحجم تتطرق إلى مسائل دينية ثابتة في شكل رأي معلل بالشواهد والأمثال، أو في شكل شرح لكتاب قائم من قبل [12]، خلف ابن العنابي العديد من المؤلفات وهذه قائمة الكتب التي تم التعرف عليها والتحقق من نسبتها إليه سواء ما ذكر هو عن نفسه، أو ما أثبته تلامذته، وما أثبتته المحقون لمخطوطاته وكتبه وهي: كتاب السعي المحمود في نظام الجنود ألف هذا الكتاب في مصر حيث يذكر أبو القاسم سعد الله على أن سنة 1242 هـ /1826م هو التاريخ المؤكد لتأليف الكتاب لأن ابن العنابي ضبط ذلك بنفسه بالأرقام والحروف[13].

من كتبه أيضا كتاب صيانة الرياسة ببيان القضاء والسياسة، ألف هذا الكتاب في مصر بطلب من محمد علي باشا كما ذكرنا سابقاً، كتاب بلوغ المقصود في اختيار السعي المحمود وهو تلخيص لكتاب السعي المحمود في نظام الجنود، لخصه تلميذه إبراهيم السقا بطلب من الوالي المصري محمد على باشا، شرح كتاب الدر المختار في الفقه الحنفي وصل فيه إلى نحو ثلثيه ألفه سنة 1244هـ، التحقيقات الإعجازية بشرح نظم العلاقات

المجازية وهو عمل في البلاغة والأدب أكمله سنة 1231هـ، كتاب العقد الفريد في التجويد وقد أكمل هذا الكتاب، كتاب لمعان البيان في بيان أخذ الأجرة عن القرآن، شرح كتاب البركوي في التوحيد لم يتم هذا الكتاب حيث كان آخر ما يكتب قبل وفاته، ثماني عشر رسالة في وقف العقار، مجموعة مسائل في قضايا مختلفة منها الفتح القيومي بجواب أسئلة الرومي، مجموعة أشعار وتقاريظ ونصوص أدبية، ثبت الجزائري وهو إجازته لإبراهيم السقا وقد أثبت فيه شيوخه ومروياته، مجموعة إجازات، خاتمة في التوحيد وضعها بمناسبة ختمه لدرس التوحيد لسنوسي، المقتطف من الحديث اقتطفه من صحيح ابن حبان، كتاب آخر في الحديث سماه المنتقى وقد انتقاه من الصحاح، رسالة له خاصة بالمرأة[14].

2. موقف ابن العنابي من التراث:

قبل التطرق لموقف ابن العنابي من التراث وجب علينا معرفة ماهية التراث، لاشك أن التراث هو كل ما ورثناه تاريخياً عن الأصول والماضي، ولا شك أنه وعي التاريخ وحضوره الشعوري في ضمير أبنائه فرديا وجماعياً، قد تتعد التعريفات والحدود له، لكن الإحصاء الشامل لمادته هو وحده الذي يسمح بتحديد طبيعته وبيان السمة الإنسانية التاريخية الزمانية له، فالحقيقة هي أن التراث حالة هي للإنسان بطبعه وما التراث إلا تجسيد تاريخي لعلم الإنسان وصنعه وفعله، إذ العلوم والمصنوعات والقيم الأخلاقية والجمالية هي الوجوه الرئيسية للتراث، وهي العناصر الرئيسية التي يورثها الإنسان للإنسان في المكان والزمان، أما الوحي فليس جزء من التراث لأنه لا يدخل في المنجزات الإنسانية[15].

كما هو معروف فإن العلوم التي كانت سائدة مثل علم الكلام، الفقه، التفسير، أصول الفقه، الفلسفة العلوم، والتصوف، هي منجزات إسلامية صنعتها أجيال تاريخية معينة في ظروف معينة، وَوَرَثَتها لمن بعدها، وليس إجباري التقيد بها ولكن تدخل في بناء التاريخ الثقافي العام للأمة، أما الخلف فليس عليهم إلا أن ينجزوا هم بدورهم منجزاتهم الخاصة التي تصبح بدورها إرثاً يضاف إلى الإرث السابق كي تكون هذه المنجزات تراثاً بالنسبة للأجيال التي تأتي بعدهم[16]، هذه العلوم التي سبق وذكرناها كانت هي العلوم المنتشرة في عصر ابن العنابي سواء في الجزائر أو العالم الإسلامي، وكانت الصفة الغالبة فيها هي التقليد والتكرار والحفظ، فلفقهاء قلما اجتهدوا واستقلوا بآرائهم، بل كانوا يقلدون سابيقهم تقليداً يكاد يكون أعمى، فإذا حاول أحدهم أن يشذ عن هذا التيار أقاموا عليه الدنيا وأقعدوها، واجتمع عليه المجلس الشرعي الذي كانت تتدخل فيه الدولة، وفي أحسن الأحوال كان يُحكم على المستقل برأيه بعزله من وظيفته، أما في أسوء الحالات فالحكم عليه بالتكفير والزندقة[17].

أما عن موقف ابن العنابي مما يدور حوله من قضايا فإننا لا نجد ابن العنابي يستنقص من مخلفات ومنجزات السلف في مختلف العلوم، بل كان يستدل بهم ويستشهد في جميع القضايا والمسائل من خلالهم، بل أنه كان يعمد لشرح بعض كتب السلف، لكن هذا لا يعني أنه أنزل تراث السلف منزلة القداسة والتحريم مثلما كان يفعله بعض الفقهاء بل أنتقد الجمود العقلي والتقليد الأعمى للتراث دون إعمال العقل والنقد اللاذع، أولنقل دعا توظيف الاجتهاد مع النصوص التراثية[18]، حيث منهج ابن العنابي قائم على العناية بتأصيل الأحكام الفقهية من أدلتها الشرعية بعكس ما كان عليه أهل زمنه في التقليد والبحث[19]، والاهتمام بالوظائف التي تتطلب القليل من الجهد والعلم، وكانت كل قضايا هؤلاء تدور حول اتهام بعضهم بعض بالزندقة والخروج عن الجماعة والاعتزال، وكل همهم في ذلك مُنْصَبٌ على الالتزام بما قاله السلف

والاحتفاظ به على علاّته أفضل عندهم من الدعوة للاجتهاد وحرية الفكر ونقد الماضي[20]، وإذا تأملنا موقف ابن العنابي من التراث المتعلق بطبيعة العلوم السائدة في تلك الفترة ومنهج التعامل معها، نجد أنه موقفه كان أكثر اعتدالا وتوازناً، فهو من جهة لم يلغي المنجزات الحضارية للسلف أو يستنقص من قيمتها، بل كان من الدارسين لها المعتمدين عليها، لكن في المقابل لم يتعامل مع هذه المنجزات الحضارية أو التراثية من منطلق القداسة وقبول كل ما فيها، وإنما أخضعها للنقد ووظف الاجتهاد فيها للوصول إلى ما هو صحيح وما يتقبله العقل والمنطق .

الملاحظ أن ابن العنابي كان مهتماً بالعلوم الدينية أكثر وبالثقافة العربية الإسلامية وحينما نقول الثقافة فليس المقصود هنا المحتوى الديني فقط، وإنما المقصود أيضا هو المحتوى الحضاري بما فيه من تعليم وتنظيم ثقافي وقضائي وعلاقات اجتماعية وفكرية[21]، إذْ نجد ابن العنابي يكتفي بإصلاح هذا الموروث وتنقيته من الشوائب التي لحقت به نتيجة المفاهيم الخاطئة التي أُلصقت به، حيث كان يدعو صراحة إلا التمسك بجميع المقومات الحضارية الإسلامية (التراث) من أجل النهضة بالأمة الإسلامية، والحفاظ على الذات بشرط تنقيتها وتوظيف الاجتهاد فيها، مع فتح باب الاقتباس والأخذ عن الحضارة الأوروبية في الأمور العسكرية والحربية والتقنية فقط، أما باقي شؤون الحياة فإن التراث الإسلامي بمنجزاته وبما يحويه قادر على النهوض بالأمة وهذا يذكره في مقدمة كتابه السعي المحمود في نظام الجنود .

لم يُظهر ابن العنابي انتقاده لطرق ومناهج ومراكز التعليم مثلما فعل معاصره رفاعة الطهطاوي الذي تعلم في الجامع الأزهر وتثقف ثقافة تقليدية في الجامع الأزهر، انتقد فيما بعد المناهج وطرق التعليم وظاهرة الاهتمام بالعلوم الدينية فقط بل دعا صراحة لضرورة التوجه نحو العلوم العقلية والعصرية إذا ما أرادت الأمة اللحاق بالركب الحضاري، حيث يؤكد أنه يتوجب أن ينحصر التعليم والعلم في جنسين دنيوي وأخروي، علوم المعاش وعلوم المعاد، وقد كرم الله الإنسان وخلق له ما في الكون من سائر المنافع وزينه بالعقل الذي يميز به بين الحسن والقبيح، والضار والنافع، والخطأ والصواب[22]، وهذه دعوة من رفاعة الطهطاوي لأخذ كل ما يعود بالنفع على الأمة عكس ابن العنابي الذي حصر الأخذ والاقتباس من الحضارة الأوروبية في الشؤون العسكرية والصناعية والتقنية، وهنا يظهر بوضوح موقف ابن العنابي من التراث على أنه متمسك أكثر من غيره ممن عاصره من العلماء والمصلحين، ويظهر موقفه المتمسك بالتراث كذلك في قضية المرأة حيث نجد رفاعة الطهطاوي الذي عاصره يدعو لضرورة تعليم المرأة والتعويل عليها في المشروع الحضاري الإسلامي، وذلك بالخروج من المفهوم الذي كان سائداً حول دور المرأة في المجتمع بأنه يقتصر على المكوث في البيت والإنجاب والتربية إلى نمطية جديدة من التفكير وهي تعليم المرأة ومنحها الوظائف والأعمال التي تطيقها[23]، بينما نجد ابن العنابي له رأي أكثر تمسكاً وحفاظاً على الحالة التي كانت عليها، حيث يؤكد وجوب تستر المرأة والحرص على عدم كشفها لوجهها أمام الغرباء، وحذر من الذين يدعون إلى مخالطة النساء بحجة المؤاخاة [24]، ولا شك أن رأي ابن العنابي هذا مستمد من الشريعة حيث استشهد على حكمه هذا بأدلة وشواهد من الدين الإسلامي باعتبار تمكنه في العلوم الشرعية والفتوى وهدفنا من هذه المقارنة بينه وبين الطهطاوي هو أن نبين بأن ابن العنابي كان أكثر حرصا وتمسكاً بتراث السلف والثقافة العربية الإسلامية .

3 - موقف ابن العنابي من الحداثة:

يعتبر القرن 19م الذي عاصره ابن العنابي حد فاصل بين مرحلتين في الجزائر: مرحلة التقهقر العلمي والثقافي، ومرحلة إدراك الذات أي الصحوة حيث يمكن أن نجد بدايتها بشكل أدق في الربع الأخير من القرن 18م، إذْ برزت مؤشرات جديدة ثقافية وعلمية وأدبية واجتماعية تمثلت في بروز عناصر تثقفت بالثقافة العربية الإسلامية، ثم اهتمت بتعلم لغة المستعمر أو اطلعت على حضارته، الشيء الذي مكنها من إدراك وبوعي ما كان يتخبط فيه الشعب الجزائري، لذلك برزت بعض إسهامات علماء الجزائر ومثقفيها سعياً منهم لإصلاح الأوضاع الدينية والاجتماعية والأخلاقية والتربوية[25]، من بين هؤلاء العلماء ابن العنابي حيث الذي رأيناه يتنقل بين أجزاء العالم الإسلامي المريض، كما يتنقل الطبيب بين مرضاه، زار العديد من البلدان العربية والإسلامية وهي كل من مصر[26]، الحجاز، تونس، المغرب الأقصى اسطانبول، يستنصح للحكام وأهل تلك البلاد[27]، وخصوصا مصر التي كانت تعرف تجربة تحديثية في فترة حكم محمد علي باشا لذلك فإن ابن العنابي لم يكن متقوقع على نفسه وإنما كان على إطلاع بما يجري من تغيرات في الساحة الدولية التي كانت من أهم معالم هذا التغير قضية ما يسمى الحداثة، القضية التي شغلت اهتمام عديد المثقفين والعلماء في تلك الفترة .

يعتبر كتاب السعي المحمود في نظام الجنود من أهم الكتب التي بينت موقف ابن العنابي من الحداثة [28]، وكيفية التعامل معها بإيجابية من طرف الأمة الإسلامية، حيث يذكر في مقدمته أن الأمم الأوروبية أو الكافرة كما يسميها قد تطاولت في طغيانها وذلك راجع إلى القوة العسكرية التي تمتلكها والتي وصلت إليها عن طريق الطرق المحكمة في التدريب وابتداع مختلف الفنون الحربية قصد النيل من الأمة الإسلامية لذلك دعت ضرورة الحال إلى تعلم ذلك منهم، والتدرب على ما ألقوا من الصنائع والحيل، وتحقيقاً لهذا المطلب قام ابن العنابي بترتيب الأمور العسكرية وتحديثها، من حيث الاهتمام بملابس الجند وذلك بتضييقها والتفنن في ألوانها وغير ذلك مما يساهم في امتلاكهم القوة ويتحسن أدائهم[29].

يذكر ابن العنابي في مقدمة كتابه أهمية تحديث الجيوش الإسلامية كي تكون على نفس نمط الجيوش الأوروبية، ويربطهما بأمرين رئيسيين: أولها خاص بالجانب الحربي، حيث يدعو المسلمين للأخذ من مختلف النظم الحديثة للجيوش الأوروبية كالخطط والحيل الحربية كذلك شكل الترتيب في الجند والرتب العسكرية، وهيكلة الجيش وتقسيمه، وكل ما من شأنه أن يعزز من قوة هذه الأمة ويرفع من شأنها، وكل هذا داخل في الإعداد والتهيئة التي أمر بها الدين الإسلامي المسلمين لأجل نشر رسالة الإسلام والدفاع عن أنفسهم، والأمر الثاني الذي يجب أن يلازم الأمر الأول هو وجوب وجود إرادة سياسية من طرف السلطة الحاكمة، أو من طرف المُنْتَخَبِيْنْ للقيام بهذه المهمة وذلك ببذل الجهد والتفاعل بإيجابية مع كل القرارات الصادرة من طرف القائمين على أمور المسلمين[30]، إن دعوة ابن العنابي لضرورة الاقتباس من النموذج الحربي العسكري والتقني الأوروبي، لا يعبر عن انبهاره بمنجزات الحضارة الأوروبية واحتقاره للعالم الإسلامي كما وقع مع كثير من المثقفين العرب والمسلمين الذين وقعوا آنذاك في آفة الاستيلاب الفكري، وتبنوا على إثرها النموذج الغربي حلوه ومره، ودون التمييز بين ما يخدم الذات الإسلامية وما لا ينفعها، وإنما يندرج ضمن تبصره بحقائق الوقائع، وفهمه الصحيح للدين الإسلامي ولكيفية اكتساب أساليب القوة .

في إطار نجاح عملية تحديث الأمة الإسلامية لجيوشها يدعو جميع فئات المجتمع الفاعلة أو كما يسميهم القاعدين إلى الترغيب في ذلك والحث عليه، ذلك أن ابن العنابي تعرض للانتقاد من البعض حينما دعا إلى

هذا المطلب، وتحاشياً لعرقلة عملية التحديث نبه إلى ضرورة تبني هؤلاء لمسألة التحديث وتشجيعها [31]، كما استفاد من دروس التي أفرزتها التجارب الإصلاحية في العالم الإسلامي وخاصة الدولة العثمانية في تلك الفترة وحتى في إيالة الجزائر، حيث كانت تُرفض جميع المشاريع التحديثية من طرف القادة وأصحاب المصالح خوفاً من ضياع مصالحهم الشخصية .

وفي مقابل حثه على الأخذ من منجزات الحضارة الأوروبية في الشأن العسكري حذر المسلمين من تقوقعهم على أنفسهم، وتمسكهم بأساليبهم التقليدية وهذا ما سيكون سبب في ذلتهم، حيث يقول: "وأنهم إذا أعدوا لنا صواعق البارود فأعددنا لهم القسى والمنجنيق اللذين صارا اليوم كالشريعة المنسوخة، أو اقتصرنا على السيوف والبندقيات أو شمروا لنا الثياب فأعددنا للقائهم الثياب المجررة، والأكمام المطولة، والعمائم المكبرة، لم نخرج عن عهدة الأمر ولزمنا الإثم والعار، فلا غرض الشارع حصلنا ولا سبيل الرجولة سلكنا" [32].

انطلاقا مما سبق ذكره يتبين لنا أن موقف ابن العنابي من الحداثة أو الأخذ من منجزات الحضارة الأوروبية في الشأن العسكري والصناعي والتقني واضح فهو يدعوا بصريح العبارة إلى الاقتباس منهم والتعلم منهم كونهم يمتلكون كل أسباب القوة والغلبة، لكن موقفه في الأخذ من الحضارة الأوروبية في باقي مجالات الحياة يختلف عن الشأن العسكري، حيث يرى أن التشريع والعلوم السياسية وباقي مجالات الحياة الأخرى المسلمون في غنى عنها، لأن الدين الإسلامي أو الكتاب والسنة فيهما جميع ما من شأنه تنظيم حياة المسلمين، وعلى سبيل المثال في الشأن السياسي الشورى في الحكم أو ما يقابلها الديمقراطية عند الأوروبيين موجودة في ديننا الإسلامي، وليس المسلمين بحاجة لأن يتعلموها من الحضارة الأوروبية[33]، يقصد ابن العنابي بهذا القول أن أغلب المبادئ الموجودة في الديمقراطية وعلى رأسها الشورى موجودة في الدين الإسلامي وليست غريبة عن المسلمين حتى يبحثوا عنها في أفكار وحضارة غيرهم .

4. خاتمة:

يُعد ابن العنابي من العلماء الكبار الذي عاصرو فترة القرن 19م الفترة التي كان أهم مميزاتها ادارك المسلمين لمقدار التخلف الذين يقبعون فيه مقارنة بالتطور و التقدم الذي كانت تعرفه الشعوب الأوروبية، مما جعل المسلمين يقفون أمام مسألة كيفية الخروج من هذه الحالة واللحاق بالركب الحضاري، هل نعتمد على التراث كسبيل للخروج من هذه الحالة؟ أم نتجه نحو الاقتباس من الغرب؟ فكان من الطبيعي أن يكون لابن العنابي رأي وموقف من هذه القضية بل ويعتبر من العلماء المسلمين السباقين الذي تطرقوا لها خلال العصر الحديث وذلك بالدعوة للتمسك بالتراث بعد تنقيته من الشوائب التي أُلصقت به، مع ضرورة تقليد الأوروبيين في المجالات العسكرية والصناعية والتقنية .

انطلاقا من كل ما سبق ذكره توصلنا للنتائج التالية :

- أن ابن العنابي كان عالم عصره، واسع المعرفة والاطلاع، اكتسبها من الحاضنة الأسرية العلمية التي ولد فيها وتربى بين أحضانها، كما ساهمت تنقلاته بين أجزاء العالم الإسلامي الاطلاع على مستجدات العصر وكل القضايا التي كانت تشغل بال المسلمين، لذلك كانت مواقفه ذا نظرة بعيد الأفق تعبر بصدق عن مشكلات واقع العالم الإسلامي .

- يعتبر ابن العنابي من العلماء المسلمين الأوائل تطرقوا إلى مسألة الأخذ والاقتباس من منجزات الحضارة الغربية في العصر الحديث، فقد سبق الكثير من العلماء المسلمين في هذا الطرح، وشكل بطرحه هذا أرضية خصبة في هذه القضية للعلماء الذين جاؤوا من بعده .

- يمكن أن نقول بأن ابن العنابي كان عالماً مخضرماً، تثقف بثقافتين ثقافة تقليدية تلقاها من أسرته وشيوخه، كما اطلع على مستجدات العلوم العصرية وخاصة أثناء إقامته بمصر التي كانت تعرف تجربة تحديثية تعتمد على الاقتباس من النظم الأوروبية في عهد محمد علي باشا كما عاش في مرحلة انتقالية لنمطية التفكير الإسلامي، بين عصر كان يمجد الذات ويدعو للتقوقع حولها، وبين عصر يدعو إلى ضرورة الانفتاح على الغرب وخاصة بعد الحملة الفرنسية على مصر 1798م، التي أبانت عن ضعف العالم الإسلامي وقوة العالم الأوروبي .

- كان موقفه واضحاً من التراث حيث يعتبر من الداعين للتمسك به شرط تصحيح ما فيه من الأخطاء وما أُلصق به زوراً وبهتاناً، حيث يرى أنه فيه كل ما من شأنه قوة المسلمين وعزتهم في كل مجالات الحياة مثل السياسة والتشريع ...الخ، وسمح فقط في الشؤون العسكرية والصناعية والتقنية بالخروج من مبدأ البحث عن حلول مشاكل العالم الإسلامي داخل التراث.

- موقفه من الحداثة أيضا كان واضحاً، حيث دعا إلى ضرورة الأخذ من منجزات الحضارة الأوروبية في مجال الشؤون العسكرية والتقنية والصناعية بل وشدد في ذلك واعتبر كل من يعترض على ذلك يكون سبب في ذلة المسلمين والدين الإسلامي أحل للمسلمين كل ما من شأنه عزتهم وعلو شأنهم .

- لم يكن ابن العنابي عالماً جزائرياً فقط وإنما كان عالم الأمة الإسلامية جمعاء أينما حل في أي جزء من أجزاء العالم الإسلامي إلا وكانت له إسهامات علمية، واهتمام بقضايا المسلمين .

كما نوصي بضرورة الاهتمام بدراسة هذه الشخصية المهمة في تاريخ الجزائر والأمة الإسلامية جمعاء من خلال الاهتمام بفكره ومختلف إنتاجه العلمي ومواقفه اتجاه القضية الجزائرية وقضايا الأمة الإسلامية وتنظيم ملتقيات وندوات لدراسة جميع جوانب شخصية هذا العالم الجليل، من مبدأ تسليط الضوء على شخصياتنا الوطنية وإسهاماتها الحضارية للجزائر والأمة الإسلامية جمعاء، والاستفادة من تجاربه الإصلاحية والفكرية .

---

[1] - خير الدين الزركلي، الأعلام، ج 7، دار العلم للملايين، لبنان، ط 15، 2000م، ص 89 .

[2] - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي ابن العنابي المتوفى 1850م، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1990، ص- ص 21- 24 .

[3] - نفسه، ص 25 .

[4] - نفسه، ص ص 28 29 .

[5] - نفسه، ص ص 30 31 .

[6] - عمر بن قينة، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث (أعلام..قضايا..مواقف)، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 19.

[7] - أبو قاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 34 35 .

[8] - عمر بن قينة، المرجع السابق، ص ص 19 20 .

[9] - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 42 43 .

[10] - عمر بن قينة، المرجع السابق، ص 20 .

[11] - أبو القاسم سعد الله، الجديد عن ابن العنابي، مجلة حوليات، مج 1، عدد1، جامعة الجزائر، 1986م، ص 52 .

[12] - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي ابن العنابي المتوفى 1850م، المرجع السابق، ص 47.

[13] - نفسه، ص 59 .

[14] - أبو القاسم سعد الله، الجديد عن ابن العنابي، المرجع السابق، ص ص 53 54.

[15] - فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ط 3، دار الشروق، الأردن، 1888م، ص 562 .

[16] - نفسه، ص 563 .

[17] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ط 2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998م ص 9 .

[18] - نفسه، ص 11 .

[19] - محمد لقريز، الشيخ المصلح محمد بن محمود ابن العنابي الجزائري وكتابه (التوفيق والتسديد في شرح الفريد في علم التجويد) دراسة وصفية تحليلية، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مج 35، عدد ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة، 2021م، ص 110 .

[20] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998م ص 444 .

[21] - مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 3، د ط، مكتبة النهضة الجزائرية الجزائر، الجزائر، 1964م، ص 317 .

[22] - رفاعة الطهطاوي، المرشد الأمين للبنات والبنين، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري، د ط، مكتبة الإسكندرية، مصر، 2001م، ص 155.

[23] - نفسه، ص 145.

[24] - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي، المرجع السابق، ص 121.

[25] - خير الدين بن شترة، إسهامات العلماء الجزائريين بالمهجر من أواخر القرن 19م إلى منتصف القرن 20م المشرق العربي أنموذجا، الحوار الفكري، مج 11، عدد 12، جامعة أحمد دراية مخبر الدراسات الإفريقية للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، 2016، ص 31 .

[26] - أبو القاسم سعد الله، رائد ومانعرف المرجع السابق، ص 55 .

[27] - أبو القاسم سعد الله، الجديد عن ابن العنابي، المرجع السابق، ص 55 .

[28] - **الحداثة**: الحداثة لغة حَدَثَ الشيء، يحدُث حُدُوثا وحداثةً وأحَدَثَهُ، فهو مُحدث وحدثَ الأمر بمعنى وقع، يقال أخذ الأمر بحداثته أي بأوله وابتدائه، وتأخذ أيضا معنى أول العمر والنشأة، نقول صبي حَدَث أي صغير السن، والحداثة في الشعر هي إبداع وخروج به عما سلف، وأما فعل التحديث فهو جعل الشيء يلبي حاجيات العصر وبكيفية وفق المقتضيات الحاضرة، يقال شيء مستحدث بمعنى مبتكر وجديد، ومنه مستحدثات، أي ما هو جديد في ميادين العلم والاكتشافات، أما اصطلاحا فهي مأخوذة من Moderne أي حديث، وهو لفظ مستعمل بكثرة منذ القرن العاشر، في المسجلات الفلسفية أو الدينية، ويكاد يستعمل دوما بمعنى ضمني إما لُعبي (انفتاح وحرية فكرية، معرفة أحداث الوقائع المكتشفة، أو أحدث الأفكار المصاغة، غياب الكسل والرتابة)، وإما عامي: (خفة، حب التغير لأجل التغيير، ميل إلى الاهتمام بالطباعات الراهنة بلا حكم على الماضي وبلا تفكر فيه)، يؤكد طه عبد الرحمن أن الحداثة مفهوم رئيسي

تعددت المواقف إزاءه بين مؤيد إلى درجة التقديس وبين منكر لدرجة التدنيس، بالفوضيل يمينة وخليفي بشير، خطاب الحداثة وسؤال المشروعية: قراءة في تطور طه عبد الرحمن للحداثة الإسلامية، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج 8، عدد 1، مخبر البحوث الاجتماعية و التاريخية بجامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، 2017م، ص ص 350 351 .

[29] - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي ابن العنابي المتوفى1850م، المرجع السابق، ص 311.

[30] - نفسه، ص ص 312 313 .

[31] - نفسه، ص 113

[32] - نفسه .

[33] - نفسه، ص ص 76 77 .